المعرف الرقمي DOI
https://doi.org/10.59151/.v8i3.400

دورية نماء
فصلية محكمة متخصصة في
علوم الوحي والدراسات الإنسانية

الدرس الكلامي: أبحاث متعددة التخصصات ومقاربات متداخلة

إلياس أمحرار[1]
ilyass.amharar@gmail.com

استضافت جامعة الدراسات الشرقية والإفريقية (SOAS) في لندن ندوة علمية كبيرة، في سبتمبر 2014، حملت عنوان «علم الكلام الفلسفي في الإسلام: التراث الأشعري المتأخر»، وقد نظمها أيمن شحادة ويان ثيله. كانت هذه الندوة الأكاديمية فرصة مهمة للفت الانتباه إلى نقص الاهتمام الأكاديمي بدراسات علم الكلام بشكل عام، وبالأشعرية بشكل خاص. وقد سلطت الضوء على التطورات اللاحقة لهذا التقليد، من خلال استكشاف مجموعة متنوعة من المنظورات التي تم استعراضها لاحقًا في عنوان الكتاب المنقح الذي نُشر بعد ست سنوات، والذي جمع، جزئيًا، الإسهامات التي قُدمت خلال هذا الحدث.

لا يهدف هذا الملف إلى تقديم جرد شامل للأعمال التي أُنجِزت منذ ذلك الحين في هذا المجال، بل يسعى إلى توضيح عدة جوانب من الديناميكية متعددة التخصصات والعابرة للحدود التي تحركه حاليًا، وخاصة تلك التي أدت إلى هذا العمل. يجمع الملف إسهامات من سلسلة من الفعاليات والمبادرات الأكاديمية، وهو تجسيد لجهد منسق لإحياء وتطوير المشهد البحثي في مجال علم الكلام الإسلامي.

المقالة الأولى من بين خمس مقالات مأخوذة من عرض قدم خلال يوم دراسي بعنوان «مستجدات دراسات علم الكلام في فرنسا: أطروحات قيد التنفيذ»، الذي عقد في 1 ديسمبر 2021 في معهد الدراسات الإسلامية ومجتمعات العالم الإسلامي (IISMM) في باريس. كان الهدف من هذا الحدث هو لفت انتباه المجتمع العلمي إلى أهمية دراسات علم الكلام في فرنسا والأطروحات التي يجري إعدادها

(1) مركز جاك بيرك، الرباط.

للاقتباس: أمحرار، إلياس، الدرس الكلامي: أبحاث متعددة التخصصات ومقاربات متداخلة، مجلة نماء، مركز نماء، مصر، مج8، ع3، 2024، 12 - 16.

في هذا المجال، الذي كان يعاني من الإهمال منذ تقاعد دانييل جيماريه، ووفاة إريك شومون (الحدث كان أيضًا تكريمًا له)، في وقت كانت فيه هذه الدراسات قد شهدت تطورًا ملحوظًا في أجزاء أخرى من العالم خلال العقود الأخيرة، وشهدت تقدمًا كبيرًا سواء في اكتشاف المخطوطات الجديدة أو في تنوع المقاربات البحثية.

كانت هذه النظرة التحديثية محور اهتمام خاص في يومنا الدراسي، الذي أبرز أعمال الطلاب الباحثين الذين يقدمون لمحة عن التوجهات المقبلة التي قد تتخذها الأبحاث في هذا المجال في فرنسا في المستقبل القريب.

وأخيرًا، كان الهدف من هذا اليوم الدراسي أيضًا؛ ترسيخ ديناميكية جماعية فرنسية حول دراسات علم الكلام، التي تتناول مجموعة واسعة من التخصصات وموضوعات متنوعة (كدراسة الفكر الأشعري، ولكن أيضًا الإباضي أو الشيعي). ولقد كانت الرؤية العابرة للتخصصات التي ميزت هذا اليوم الدراسي تذكيرًا -إن كانت هناك حاجة إلى تذكير- بأن دراسات علم الكلام لا تهم فقط المتخصصين في العقيدة، بل تهم أيضًا -على سبيل المثال- المتخصصين في الفلسفة، واللغويات والتصوف...

يعالج المقال الأول مكانة الإيمان في التصوف. ويقدم باحث الدكتوراه في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا، باسكال لوميل، دراسة حول فكر أبي حامد الغزالي الصوفي، وبالأخص ما يسميه «علم طريق الآخرة»، حيث يعرض العناصر الرئيسية في عمله «إحياء علوم الدين». يولي لوميل اهتمامًا خاصًا لمفهوم تقليدي كتب عنه الكثير من علماء الكلام والفقهاء: وهو (التقليد). ويهدف مقاله إلى تحديد مكانة التقليد في نظرية المعرفة عند الغزالي، والتي استخدمها أحيانًا لدحض ادعاءات الفلاسفة والمتكلمين أو الباطنية في الوصول إلى اليقين.

كان اليوم الدراسي المذكور جزءًا من مشروع أوسع لدعم الأبحاث الأكاديمية في علم الكلام التي تُجرى في فرنسا، الذي بدأ بورشة عمل أولى نظمت في مؤتمر GIS-MOMM بعنوان «مستجدات دراسات علم الكلام في فرنسا» التي كان الهدف منها؛ تقديم الأبحاث الجديدة التي يقوم بها الأكاديميون للطلاب الباحثين.

أسفرت هذه الفعاليات عن لحظات مميزة من التبادل مع الطلاب الباحثين. وقد كان من بينهم نيكولا أندريوتشي الذي قدم مقالاً لهذا الملف. في مقاله «حول قول منسوب إلى مالك بن أنس وتفسيره عند ابن تيمية»، يتناول كيفية استخدام تعبير «بلا كيف» من قبل علماء الكلام لتجنب نسبة أي شكل أو هيئة مادية لله، ويعود بعد ذلك إلى مسألة شائكة، وهي مراجعة مالك لحديث يتضمن مصطلح

(الكيف)، وهو موضوع أثار الجدل بين الأشاعرة ومعارضيهم، ومن بينهم ابن تيمية.

تواصلت هذه الجهود في العام التالي من خلال عدة فعاليات، كان آخرها سيمنار حول الأبحاث الجارية في علم الكلام، نظمها مركز جاك بيرك (الرباط) وفيلوسموس، دائمًا بدعم من .IISMM

كانت طموحات الندوة كبيرة بكل تأكيد؛ إذ كان الهدف هذه المرة يتمثل في إنشاء مساحة للتبادل تجمع جمهورًا واسعًا من الأكاديميين الفرنسيين والدوليين، بما فيهم الطلاب الباحثون، لتبادل المنهجيات والنتائج.

نظرًا للموقع الجغرافي للمركز الذي يشكل وحدة من وحدات البحث المشتركة في الخارج (UMI-FRE) فقد كانت الأبحاث المغربية ممثلة بشكل خاص. يجدر القول إن الدراسات الأشعرية في المغرب قد شهدت ازدهارًا كبيرًا في العقدين الأخيرين، مركزة بشكل أساسي على محورين: المؤسسات الدينية والمبادرات الأكاديمية المستقلة.

في الفئة الأولى، نجد الرابطة المحمدية للعلماء، وهي هيئة ذات منفعة عامة أسسها الملك محمد السادس في عام 2006 بهدف «تعزيز إسلام منفتح ومتسامح» وأيضًا «المساهمة في تنشيط الحياة العلمية والثقافية في مجال الدراسات الإسلامية من خلال تعزيز الروابط التعاونية والشراكات مع الجامعات والمؤسسات العلمية». ومن خلال فروعها المختلفة في المملكة، ومن بينها مركز أبي الحسن الأشعري في تطوان، أسهمت الرابطة بشكل كبير في البحث الجامعي المغربي حول الأشعرية، من خلال مجلة أكاديمية، (الإبانة)، ولكن أيضًا، وقبل كل شيء، من خلال تحرير نقدي للعديد من المخطوطات غير المعروفة وتأليف مونوغرافيا أصبحت بعض عناوينها مراجع أساسية. ولا يفوتنا أن نشير إلى أن مجلة دعوة الحق التابعة لوزارة الأوقاف المغربية قد خصصت العدد 442 لعلماء الأشاعرة.

وفي الوقت نفسه، شهدت السنوات الأخيرة زيادة في عدد من المؤسسات البحثية المستقلة والمراكز البحثية التي يديرها أكاديميون مغاربة. أسهمت إلى حد كبير من خلال مجلاتها العلمية وفعالياتها الأكاديمية، في تقدم الدراسات حول الأشعرية، باتباع نهج يعزز التبادل والتعاون محليًّا ودوليًّا.

هذه المبادرات الجماعية تعكس رغبة في تجديد وتنشيط الدراسات حول الأشعرية في المغرب، من خلال دمجها في منظور وطني وعالمي في آن واحد. تقوم الشراكة بين المؤسسات الدينية والمراكز البحثية المستقلة بدور رئيسي في هذا التجديد، مما يتيح الجمع بين احترام التراث والنقد البناء، لخدمة فهم أفضل للأشعرية في السياق المعاصر.

شارك اثنان من الباحثين المغاربة الشباب خارج إطار هذه الندوة في هذا الملف الخاص، وهما يعكسان حيوية الدراسات حول علم الكلام حاليًا من منظور متعدد التخصصات.

في مقاله «أصول الفقه بين الشافعي والأشعري»، يقوم مولاي أحمد أمناي بدراسة تاريخية لاستكشاف العلاقة المعقدة بين إسهامات الشافعي وتلك التي قدمها الأشعري في مجال أصول الفقه

وعلم الكلام. كان الهدف من مقال أمناي معرفة مدى تأثير الأشعري أو ابتعاده عن المنهج النظري الفقهي للشافعي، وما الأسباب التي دفعت بعض الشافعية إلى الابتعاد عن نهج الأشعري، رغم أنه كان يُنظر إليه على نطاق واسع على أنه من أتباع التقاليد الشافعية.

في هذا المقال المبتكر، يحلل أمناي التوترات بين أتباع الشافعي وأتباع الأشعري، خاصة فيما يتعلق بتأثير علم الكلام على تطوير القواعد الفقهية. كما يتناول الخلافات المحددة في منهجيتهما، مثل مسألة الصيغ الشرعية وطبيعة الأمر الإلهي. وأخيرًا، يختتم ملاحظًا أنه على الرغم من أن الأشعري قد ابتعد عن الشافعي في بعض النقاط، فإن تأثيره كان حاسمًا في تشكيل الفكر الفقهي الإسلامي، لا سيما فيما يتعلق بإدماج علم الكلام في الفقه.

يمثل أصول الفقه حلقة أساسية في فهم التداخلات بين علم الكلام والعلوم الأخرى. أحب أن أشبه أصول الفقه بمستحلب حيث تدخل العديد من المعارف في تفاعل وتمازج. هكذا، في إطار أطروحتي، عندما أردت دراسة التفاعلات بين اللغة العربية وعلم الكلام، لم أجد أي قالب مناسب لمثل هذه الدراسة سوى رسالة في أصول الفقه. وقد وجدت فيها مادة لمقال حول أصل اللغة، والنقاشات التي دارت بين علماء الكلام وعلماء اللغة.

أما مقال محمد العسري، فيتناول التأثيرات الكلامية على النحو العربي. يبدأ بالقول إن النحو العربي تأثر بالاتجاهات الكلامية منذ بداياته. ثم يقسم العسري دراسته إلى أربعة أقسام رئيسية، يسميها معالم، ليوجه القارئ لاستيعاب ملامح هذا التأثير. في المعلم الأول، يدرس تراجم النحاة العرب ويبرز كيف أن العديد منهم كانوا أيضًا منخرطين في علم الكلام. ويظهر أن هذه المهارة المزدوجة غالبًا ما أدت إلى إدماج المفاهيم الكلامية في أعمالهم النحوية. يتناول المعلم الثاني التغيرات التي طرأت على اللغة وأسلوب النحاة، والتي تأثرت بعلم الكلام. يحلل العسري كيف أدخلت المناظرات الكلامية مصطلحات جديدة ومفاهيم مستحدثة في النحو العربي، مما أدى إلى تغيير إطاره التقليدي. في المعلم الثالث، يناقش العسري كيف أثر المنطق، المرتبط ارتباطًا وثيقًا بعلم الكلام، على صياغة التعريفات والمصطلحات النحوية. يذكر أمثلة لتعريفات نحوية تدمج المبادئ المنطقية والكلامية، مما يوضح التعقيد المتزايد لهذا التخصص. وأخيرًا، يستكشف المعلم الرابع القضايا العلمية المشتركة بين التخصصين. يوضح الباحث كيف تمت مناقشة موضوعات مثل طبيعة الخطاب وأدوار الفاعلين النحويين من قبل كل من النحاة وعلماء الكلام، مما يبرز التفاعل المستمر بين النحو وعلم الكلام. ويختتم بالتأكيد على أهمية الاعتراف بهذا التفاعل لفهم تطور النحو العربي بشكل كامل وتداخله مع علم الكلام الإسلامي.

في حين كانت الأبحاث المغربية ممثلة بشكل خاص في هذه الندوة، فقد كانت أيضًا فرصة للحوار مع الأبحاث التركية، التي تشهد في الآونة الأخيرة نشاطًا علميًا مزدهرًا في مجال علم الكلام، لا سيما في

السياق العثماني، الذي كرست له العديد من الندوات الدولية، منها ندوة في إسطنبول انعقدت عام 2015. يزدهر هذا النشاط برعاية من المؤسسات الدينية، مثل مركز الدراسات الإسلامي (ISAM) ، وأيضًا من خلال المؤسسات الجامعية المنتشرة في جميع أنحاء البلاد، حيث يضم بعضها، مثل جامعة إسطنبول وجامعة أنقرة، قسمًا خاصًّا لعلم الكلام. أسفرت هذه الديناميكية عن زيادة ملحوظة في عدد المقالات العلمية، والتي تُنشَر عبر منصة ديرجي بارك، وكذلك في عدد من التحريرات النقدية للرسائل المهمة وترجمتها إلى التركية، مثل ترجمة يوسف أريكانار لبحر الكلام للمتكلم الماتريدي أبو معين النسفي. وتنظم مؤسسة سلطان أحمد الوقفية -التي تتخذ من إسطنبول مقراً لها، وتضم مكتبة مخطوطات مهمة- منذ ست سنوات ورشات تدريبية حول رسائل ماتريدية شهيرة، يشرف على تدريسها حمزة البكري، أستاذ في جامعة إسطنبول ومؤلف المقال الأخير في هذا الملف.

يتمحور مقال البكري حول نظرية الفعل الإنساني والإرادة، التي يطلق عليها عادة علماء الكلام مسألة الجبر والاختيار. بعد تقديم تاريخي للنقاشات حول هذه المسألة، والتي تعود إلى القدرية والجبرية، يركز البكري على معالجة هذه القضية من قبل علماء الكلام العثمانيين في القرن العاشر/ السادس عشر الذين تأثروا بالأشعرية. يجد البكري أن هؤلاء العلماء، على عكس المتوقع، لم يكونوا ميالين للدفاع عن فكرة الجبر، بل كانوا يميلون إلى نفيه. علاوة على ذلك، لاحظ البكري أن هذه الفترة شهدت تكاثر الرسائل التي تناولت هذه القضية. ويقدم هذه الرسائل في ورقته العلمية، كما يقارن المنهجية التي اعتمدها علماء الكلام في هذه الفترة بمنهجية أسلافهم، ليستخلص استنتاجات حول تطور علم الكلام في السياق العثماني.

كما قلنا، لا يدعي هذا الملف الشمولية؛ وإلا لكان من الضروري مثلًا تناول تطور الدراسات حول الأشعرية في جنوب شرق آسيا، والماتريدية، والدراسات الإيرانية، وكذلك الدراسات التي أنجزت في مناطق أوروبية أخرى (ألمانيا أو بريطانيا)، وهو أمر يحتاج إلى عدة مجلدات.

ومع ذلك، فإنه يعرض، من إسطنبول إلى الرباط مرورًا بباريس، جانبًا من الديناميات الحالية للبحث حول علم الكلام، وفقًا لمنهجيات عابرة للحدود ومتعددة التخصصات.

وأختم بتقديم شكري لمعهد الدراسات الإسلامية ومجتمعات العالم الإسلامي (IISMM) على دعمه المستمر طوال مختلف الفعاليات التي تم تنظيمها، وللجنة تحرير مجلة نماء للدراسات الإسلامية والإنسانية، على قبولها استضافة هذا الملف، وأخيرًا للمراجعين المجهولين، الذين سمحت ملاحظاتهم للباحثين بتطوير وجهة نظرهم الخاصة وتجويد أعمالهم البحثية التي يضمها هذا الملف.